بلاغــةُ المكوّنات السّرديّة في رحلة ابن فضلان

د. كريم الطيبي(*)

مقدّمــة:

تحاول هذه الدّراسة مقاربة رحلة ابن فضلان من منظور بلاغيّ-حجاجيّ، ينظر في الآليّات والمقوّمــات الّتي تجعل من الرّحلة خطابا بلاغيًّا حجاجيًّا، وتتأتّى أهميةُ هذه الدّراســة في كونها تنظــر إلى الخطاب الرّحليّ انطلاقًا من خلفية جديدة تنأى عمّا أغدق فيه الباحثون متونَ الرحلة بالدّراسات التي تنطلق من علم السَّرد سواء السردية البنيويّة أو السّردية الدلالية، وعلى الرّغم من أهمية هذه البحوث إلا أنها تخدم المنهجَ أكثر مما تخدم أدب الرّحلة؛ ذلك أنَّ الاعتكاف على دراسة سرديّة الخطاب الرّحلي من حيث أســلوبُه وبناؤه ودلالته يُقصي الجانبَ البلاغيّ الحجاجيّ الذي يقوم عليه هذا الخطاب، وهو ما جعل هذه الدّراسات السرديّة تغفل كثيرا من المقاصد والغايات التــي كُتبت من أجلها الرِّحْــلات، خصوصًا وأنّها تغضُّ الطّرف عن كثير مــن الموجِّهات المهمّة في هــذا النَّوع الخطابيّ كالسّــياق العامّ الذي ألّفت فيــه هذه المتون الرّحلية، والنّســق الثقافيّ الذي يصــدر عنه الرحالون، والمقاصد التّواصليــة- الحجاجية التي يرومون تحقيقها. هذه الملاحظات كلها تجعلنا نقر بأن الانشغالات السردية للباحثين مجرد تطبيقات ميكانيكية على نوع أدبي له سمات خاصة في الأدب العربي، هذه التطبيقات عادة ما تستأصل مفاهيمها الإجرائية من حقول أخــرى كالرواية – وهو الحقــل الخصيب للسرديات- لتجعلهــا أدوات تحليلية إجرائية تُخضعها على النصوص الرحلية.

(*) الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، تطوان- المغرب.

من هنا جاء اهتمامنا بمقاربة الخطاب الرحلي مـن منظور بلاغيّ يحاول إضـاءة عتمات الرّحلة، من خـلال رصد الآليّـات الحجاجيّة التي تسـعى إلى إضفـاء المصداقيـة عـلى الخطـاب، والكشـف عن المقاصـد التأثيريّة الثّاوية فيهـا. ولا يُفهم من محاولتنا هـذه أنّنا نصدر عـن رأي ينفي جمالية خطـابِ الرّحلة وأدبيّته في هذا البحـث، كما أنّنا لا نقرُّ بحجاجيّـة هذا الخطاب كذلك، بـل إننا نميل إلى التّياريـن معـا؛ لأن خطـابَ الرّحلـة خطـابٌ ينبني على ثنائيـة «التّخييل والتّداول» و«التّصوير والحجاج»[١]. وسـنحاول أجرأة هـذا التّصور من خـلال رصد بلاغة المكوّنـات السّردية في رحلة ابن فضـلان، ولا نقصـد بالبلاغـة، ههنا، سـوى تلك المقاربة التـي «تنظر إلى النص من زاوية تأثيره في المتلقي»[٢] ، والتي تنبني على بعد «تداولي لا يكتفي بالنظـر إلى النـص في علاقاتـه الداخليـة ولكن في علاقاته بالمتلقي والسياق»[٣]. ومن ثمّ، فإنّ الأسئلة الجوهريّة التي شغلت بالنا في هذا البحث، وحاولنا الإجابة عنهـا هي: كيف تحققت بلاغـة رحلة ابن فضـلان؟ وما المكوّنـات السّردية التي توسـل بها الرحالـة لتحقيـق الأبعاد الحجاجيـة وبلوغ غاية التّأثير في المتلقي؟

١- بلاغة المكوّنات السّرديّة في الرحلة:

الرحلـة ليسـت خطابـا سرديـا يهدف إلى الإمتـاع وحكـي تجربة شـخصية بطلهـا الرحالة فقط، بـل إنها خطابٌ تواصليّ يروم تقديم المعرفة وتلقينها للمتلقي، فالرّحلـة «أكثر المدارس تثقيفا للإنسان»[٤] ، وهو ما يجعل الرحلة خطابا تفاعليّا يختزن كثيرا مـن المقاصد التأثيريـة التي يخفيها الخطاب.

إن الرحلـة خطـاب احتمـالي يقوم عـلى اللغة الطبيعية، ومن ثم فإنّ حضور الفعالية الخطابية-الحجاجية أمر لا محيد عنه، كما أن حضور الجانب التخييلي وارد كذلك، وعليه فإن الرحلة تترجح بين التخييل والتأثير وبـين الإمتاع والإنفاع، الأمر الذي يجعل مـن الرحلة خطابا بلاغيّا؛ فكما قال أوليفي روبول:» ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسـلوب، كل خطاب تحضر فيـه الوظائف الثـلاث: المتعـة والتعليـم والإثارة مجتمعـة متعاضـدة؛ كل خطـاب يقنـع بالمتعـة والإثارة مدعمتين بالحجاج»[٥].

ومـن جهة أخرى، يحضر، في الرحلة، الخطاب المبنـي عـلى المفاخـرة والمنافـرة، هـذا الحضـور اللافـت يسـمح لنـا بتصنيـف الرحلـة ضمـن الخطاب الاحتفالي – حسـب التصنيف الأرسـطي للخطابـات-[٦] ، ويحتلُّ الخطابُ الاحتفاليُّ مكانةً بـارزةً في النّص الرّحلي، إذ مـا يفتأ ينخرط المتكلّم في عـرضِ مواقفـه وآرائـه مدحًـا أو ذمًّـا دافعًـا

(١) ننطلـق في هـذا البحث من منظور «البلاغة الموسّـعة» التي تشـمل مكوّني التّخييل والتّـداول وجناحي التّصوير والحجاج، وهـذا المنظور أرسى مبادئه الأساسـية الدكتور محمـد العمري، وطـوّر مباحثـه بأصالة وعُمـق الدكتور محمد مشبال، والعبارتان مقتبستان من عنونة لكتابين من تأليفهما.

(٢) محمد مشبال، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الأسلوب، دار العين، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م، ص: ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٤.

(٤) فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط٢، ٢٠٠٢م، ص:٢٣.

(٥) نقـلا عـن: محمـد العمـري، البلاغـة الجديـدة بـين التخييـل والتداول، أفريقيـا الشرق، الـدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٢،ص:٢٢.

(٦) أصنـاف الخطابـات ثلاثـة: القضائـي والسـياسي والاحتفـالي، يُنظـر: الخطابة لأرسـطو، تر: عبـد الرحمن بـدوي، ص:١٦-١٧. وكتاب: الحسـين بنو هاشـم، بلاغة الحجاج الأصـول اليونانية، ص: ٢٢٩. ودراسـة: «البلاغة العربيـة في ضـوء البلاغة الجديـدة أو الحجـاج» لعبد الله صولة، ص:٢٩، ضمن كتاب:»الحجاج مفهومه ومجالاته»، عالـم الكتـب الحديـث، الأردن، ط١، سـنة ٢٠١٠مـج١، ص:٢٩.

المتلقّين إلى تبنّي وجهات نظره نحو موضوع ما أو صرفِ اهتمامهم عنه، وذلك عبر استراتيجيات قولية وأساليب خطابية تقوم على إبراز المحاسن في سياق المدح، أو توصيف المساوئ في سياق الذّمّ؛ فما يميّز «الخطاب الاحتفالي سعيه إلى بناء صورة نموذجية عليا لموضوع مدحه في مقابل بنائه لصورة دنيا للموضوع الذي يذمّه»[٧]، إنَّه خطابٌ يقومُ على «المدح والذم، مدح الشريف وذم الخسيس»[٨]، وإظهار الحسن وكشف القبيح، يتجلى، بوضوح، في الوصف؛ فالرحالة يصف من خلال المقارنة، لذلك يعمد إلى التحقير والتفخير أو الذم والمدح. ومن ثمَّ، يمكن القول، إنّ الخطابَ الاحتفاليَّ يهدف إلى « بيان الشريف والفاضل»[٩]، وذلك من أجل بلوغ غاية أساس هي «أن ترسخ في ضمائر الناس قيمة الجميل»[١٠]، وقد أومأ أحد الباحثين إلى ملاحظة غاية في الأهمية، على الرغم من عدم صدورها من منظور بلاغيّ، يقول فيها: «تشكلت نظرة الرّحالة القدامى إلى ثقافة الغير في إطار «التزيين والتقبيح» على أساس مفاضلة ثقافة الذات على الغير»[١١]. ويقول في ملفوظ آخر: «فمنطق «المفاضلة» عند الرحالة المسلمين القدامى - بحكم الوضعين السياسي والحضاري لثقافة الذات- قد تغير عند الرحالة العرب المحدثين، فأضحت «المقارنة» أساس الوصف»[١٢] . تشكل هذه الملاحظة النقدية نقطة مهمة في تأطير المتون الرحلية العربية القديمة بوصفها نصوصا بلاغية أنتجت في سياق بلاغي ينبني على أبعاد تداولية تروم إبراز محاسن الذات على حساب رصد مساوئ الآخر.

وتجدر الإشارة، في حديثنا عن بلاغة الرحلة، أن الحجاج العقلي logos يبلغ درجاته الدنيا؛ لأن الرحالة لا يجادل في قضية معينة من جهة، وتغيب الحوارية التي تقتضي وجود خصم هو طرف ثانٍ مخالف للدعاوى من جهة ثانية، ومن ثم، فإنّ الحركة الحجاجية خافتة. بيد أن هذا لا يعني خلوّ الخطاب الرّحلي من الحجاج؛ فالخطاب الاحتفاليّ يتأسس على الحجاج العاطفي، يقول الدكتور عبد الله صولة متحدثا عن الحجة التي تناسب الخطاب الاحتفالي: «أما الخطبة التثبيتية... فتناسبها حجة الباتوس، والباتوس إنما هو مجمل الانفعالات والأهواء والمشاعر التي ينبغي على الخطيب أن يثيرها في نفوس السامعين فيحقق بذلك الإقناع وهذا يقتضي من الخطيب أن يكون عالم نفس يعرف كيف يثير مشاعر جمهوره ومن أين يأتيهم»[١٣]. ويقول محمد الولي، أيضا:» بينما يتعلق الأمر بالخطابة الاحتفالية، حيث القصد هو التعظيم أو الحط من شأن شخصية ما، تعظيما أو حطا يستقطب الإجماع، فإن الحجاج لا يكون له أي داع، وهنا يفسح في المجال على مصراعيه للمقوم التفخيمي، الذي يكتفي بتفخيم الأفكار المتفق عليها عند كل المستمعين. إن المبالغة والتزيين المتوسل بالتشبيهات والاستعارات والتوازي هي المسيطرة هنا»[١٤]. يتضح من خلال هذه الاستشهادات، أن الحجة الأكثر حضورا والأنجع

(٧) محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٦م، ص: ٢٥.
(٨) عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، دراسة مذكورة، ص:٢٩.
(٩) عادل عبد اللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص: ٥٦ .
(١٠) هشام الريفي، الحجاج عند أريسطو، ضمن «أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أريسطو إلى اليوم»، ص:٢٦٨.
(١١) حسين فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع١٢٨، يونيو ١٩٨٩م، ص: ١٧٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص:١٧٦.
(١٣) عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ص:٢٩.
(١٤) محمد الولي، مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، ع٢، المجلد٤٠، ص: ٣٢.

تأثـيرا هي حجة الباتـوس Patos باعتبارها حجة عاطفية تستميل المتلقي من خلال تأجيج عواطفه وإلهابها، وتتواشج هذه الحجة مع بعض المكوّنات السّرديـة كالحكـي والوصف والحوار والأسـلوب والتي تلتبس، في هـذا المنحى، بأبعاد حجاجية؛ إذ تضطلع بدور فعّـال في الحجاج وإثارة العواطف. ونزوع الرحلة إلى الحجاج العاطفي، مدخل أساس في اسـتثمار المكوّن السردي كالحكي والخبر ضمن غايـات تداوليّـة؛ إذ يتحول من وظيفتـه الإمتاعية ليصبـح «أداة للتواصـل تتغيـا الإقنـاع وتبليـغ المعرفة»[١٥].

هكذا، إذًا، تكتسـب الرحلـة بلاغتها من خلال الخطـاب نفسـه، انطلاقا مـن اسـتثمار المكوّنات السّردية التي تُشـكّل خطاب الرّحلة ضمن وظيفة حمل المتلقي على التَّصديق والتّأثّر؛ حيث يعمد ابن فضلان إلى تأسيس خطاب معرفيّ مضبوط ودقيق، مـن خلال إيـراد الأخبـار التـي تعضّـد الدَّعاوى المعروضة، وهي أخبار يحكيها الرحالة دون وجود سـند طويل أو قصير، بقدر ما يسـندها إلى نفسه مباشرة وهـذا أدعى للتصديق، فالأخبار مبنية على المشاهدة العينية والحضور الفعلي للرحالة، كما أن الجانب التسـجيلي والتوثيقـي في الرحلة مضبوط وممنهـج يحـرص فيـه الرّحالة عـلى تدوين نقط الانطـلاق والوصول، ومحطـات الوقوف، مع ذكر مـدة المقـام كذلك. هـذه المعطيات كلّها تُسـهم في إكساب الخطاب الرّحلي أبعادا حجاجيّة وتداوليّة.

وتكتسـب الرحلة حمولتها الحجاجية وقدرتها التّأثيريّـة مـن خـلال لجـوء الرّحالـة إلى بعـض التّقنيات والآليات التي يسعى من خلالها إلى إثارة عواطف المتلقي وتهييـج نوازعه وإيقاد انفعالاته، بغية اسـتمالته وتحقيق الفعل الإنجازيّ المتمثل في التواطـؤ مـع الرحالة وتبني المواقف نفسـها التي يتبناهـا. ومـن الآليـات البليغة التي تشـكّل قوام الخطاب الرّحْلي نجد الوصف الذي لا يستغني عنه الرّحالة؛ إذ به يتم نقـل المتلقي من عالمه الواقعي، إلى العالـم الجديـد الذي يشـيّده، بناء عـلى تعداد مميـزات الأوطان والبلدان المـزارة، وتصوير الآخر وخصائصـه وثقافتـه وعاداته ولغتـه ومعتقداته وغيرهـا. وبمـا أنّ الوصف، من جهـة، غير بريء وينبنـي، بدرجة كبيرة، على ذاتيّـة الواصف، فإنه ينبـوع البلاغة بامتياز؛ فهو لا يبقى رهين وظيفته الجماليـة والتزينيّـة، بـل يتعـدّى هـذه الوظيفة ليضطلـع بأبعاد حجاجيّـة وأغـراض تأثيريّة؛ إذ إنّ الرّحالة يسـتثمر هذه الآلية الأسلوبية استثمارًا وظيفيًّا وهو يروم المدح والذمّ، والمفاخرة والمنافرة، والتّحقير والتّفخير. الأمر الذي يسمح لنا بتصنيف الرّحلـة ضمن خطـاب احتفاليّ قائم عـلى ثنائيات المدح والذم، والحسن والقبيح.

٢- بلاغة الحكي:

إنّ أدبَ الرّحلةِ أدبٌ ذو طبيعة سرديّة، يعتمد على الحكي والسّرد، لأنّ الرحلةَ فنٌّ حركيٌّ يتأسَّس على عمليـة الانتقال من مكان إلى مـكان. ومن ثمّ، مـن الطَبَعيّ أن تكتسي المنـزع السّردي، المتمثل في حكي الأحداث؛ إذ إنّ الحدث هو «الانتقال من حالة إلى أخرى»[١٦]. والسّرد، في طبيعته التلفظية، يقوم على «عمـل تواصليّ بـين الراوي والمـرويّ له»[١٧]، ويمكـن رصد حدود الخطاب السردي في رحلة ابن فضلان في العناصر الأتية:

السارد: الرحالة/ابن فضلان.

(١٥) محمـد مشـبال، البلاغـة والـسرد، جـدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسـانية/ جامعة عبد المالك السـعدي، تطوان، ٢٠١٠م. ص: ١٣.

(١٦) محمـد القـاضي (إشراف)، معجـم السرديـات، دار محمد علي- تونس، دار الفارابي- لبنان، مؤسسة الانتشار العربي- لبنان، دار تالة-الجزائـر، دار االعين- مصر، دار الملتقى- المغرب، ط١، ٢٠١٠م، ص: ١٤٥.

(١٧) المصدر نفسه، ص: ٢٤٤.

الخطاب السردي: متن الرّحلة.

المسرود لـه: الخليفة العباسي المقتدر بالله/ القارئ.

ويعتمد الرّحالة على الذّاكرة في سبيل تذكر الأحداث والوقائع التي حدثت أثناء قيامه بفعل الرّحلة، وهو ما يسهم في إنتاج خطاب احتماليّ ينبني على وعي جديد يصدر عنه أثناء كتابة رحلته وتحويلها من فعل حركيّ إلى خطاب لغويّ؛ إذ يعمد إلى الانتقائية وفرز الوقائع، نظرا لمراعاة مقام التّواصل، وحال المتلقي؛ لأن «زمن المتلقي بكل ما يحفه من غموض والتباس يحضر بذاكرة السارد وهو يؤسس مساراته السردية»[١٨]، هذه المساحة الفارغة التي تفصل الرحلة/ الفعل عن الرحلة/ الخطاب، تسمح للسارد/الرّحالة أن يملأها بمجموعة من الآليات الخطابية التي تختزل أبعاد الرحلة التداولية، والتي تروم التّأثير في المتلقي، وتغيير بعض اقتناعاته، من خلال تقديم مجموعة من المعارف التي يجهلها، دون أن يعني هذا غياب الوسائل الإمتاعية التي يسوقها الرحالة في رحلته؛ فالرحلة خطاب معرفي تداولي مغلَّف بسمات تضفي الطابع التخييليّ عليها. وسنسعى في هذا الفصل، إلى إبراز بلاغة خطاب رحلة ابن فضلان، من خلال رصد الأبعاد التداولية والغايات التّواصلية التي تتضمنها بنية الرّحلة الملفوظيّة.

وَطّأ ابن فضلان رحلته، قبل أن يدلف إلى حكي وقائع رحلته، بمقدّمة مختصرة يذكر فيها دواعي الرحلة يقول فيها: «لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدًا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك. وكان السفير له نذير الحرمي، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين وسبب له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه وللجراية على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين من أرض خوارزم من ضياع الفرات»[١٩].

يسهم هذا التقديم في تشكيل أفق القراءة، من خلال عرض مقام الرّحلة والدَّواعي المحيطة بها، كما أنه يبرز المنحى التواصليّ الذي تتأسَّس عليه خطاب الرحلة من خلال انبنائها في سياق تواصلي:

المخاطِب: ابن فضلان.

الخطاب: الأحداث والوقائع التي رافقت مسير الرحلة، ووصف البلدان والأوطان التي وصل إليها الرحالة ورفقته.

المخاطَب: من خلال هذه التوطئة يتضح أن متلقيي الرحلة هما متلقيان، الأول محدد هو أمير المؤمنين المقتدر بالله، والثاني هو متلقٍ مضمر وضمني هو قارئ الرحلة بشكل عام.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المقدمة لا تخلو من أغراض تواصلية؛ إذ إنَّ الرّحالة يبني مجموعة من المقدّمات التي يفصح عنها منذ البداية لكي ينتقل إلى إثباتها وحمل المتلقي على تصديقها، إنها مقدمات تشكل دعاوى جزئية تشكل مدخلا يروم من خلالها ابن فضلان إيصال جملة من الآراء والتصورات التي تؤكدها؛ ويمكن إبراز هذه الدَّعاوى التي تلخِّص المهمة المنوطة بالبعثة المرسلَة فيما يلي:

-الذهاب إلى ملك الصقالبة.

-تفقيه الناس في الدين.

-التعريف بشرائع الإسلام.

- بناء مسجد ونصب منبر للقيام بالدعوة.

- بناء حصن يتحصن فيه ملك الصقالبة من الملوك المخالفة له.

(١٨) سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية، ص: ٢٥٧.

(١٩) الرحلة، ص: ٣٧- ٤١.

يذكر ابن فضلان أن البعثة قامت بواجبها وحققَّت الأهدافَ المرجوَّةَ منها إذ قال: «فأُجيبَ إلى ما سألَ من ذلك»، غير أنَّ الأمر محوج إلى الإثبات والتَّأكيد، ومن ثمّ، فإنَّ التوسل بالآليات التأثيرية الحجاجيّة والوسائل الإقناعيّة أمر لا مناص منه لتحقيق الأبعاد التواصليّة وحمل المتلقي على تصديق خطاب الرّحلة، الأمر الذي سيروم الرحالة تحقيقه من خلال استثمار بعض الآليات الخطابية لتمرير جملة من الأخبار والمعارف التي تتعالق مع هذه الدَّعاوى الذي أثَّثها في مقدّمة رحلته. وسنحاول الكشف عنها في معرض تحليلنا لبعض الآليات التي انبنى عليها خطاب الرحلة.

ومن جانب آخر، يشكِّل الحكي آليةً خطابيّةً لتمثيل الأحداث التي وقعت للرحالة أثناء قيامه بالسفر؛ يقول ابن فضلان: «فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة فأقمنا بالنهروان يوما واحدًا، ورحلنا مجدين، حتى وافينا الدسكرة، فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان فأقمنا بها يومين....»[٢٠]. نلاحظ من خلال هذا الملفوظ أن السَّارد/الرحالة يحرص على ذكر المشيرات المكانية والزمانية في رحلته؛ فقد حدَّد نقطة انطلاق الرحلة (بغداد) ثم يذكر، بشكل متسلسل، المحطّات الجغرافيّة التي مرَّ بها مع ذكر مدَّة الإقامة. إنّ حرص الرحالة على ضبط المشيرات الزَّمكانية، يحيل إلى محاولة إضفاء المصداقية على خطاب الرحلة، كما أن بعض العبارات مثل (مجدّين، لا نلوي على شيء) تضطلع بوظيفة تأثيرية على اعتبار أن الوفد الرِّحلي انضبط للمهمة المنوطة به، وكان همه الأوحد هو الوصول إلى الهدف.

والملاحظ، كذلك، أن الحكي في بداية الرحلة، التبس بنوع من التَّقرير المباشر؛ حيث اكتفى الرَّحالة بذكر نقط الوصول والانطلاق دون تعريج على وصف المشاهد والناس والأماكن أو سرد لتفاصيل ما وقع أثناء مسيرهم؛ بيد أن الأمر سيختلف حينما سيصل وفد الخليفة المقتدر إلى «بخارى»، إذ سينأى ابن فضلان عن الأسلوب التقريريّ الجافّ ليتوسل بآلية الوصف، وتتبدّى لنا هذه الملاحظة في قوله: «ثم قطعنا المفازة إلى آمل، ثم عبرنا جيحون، وصرنا إلى آفرير رباط طاهر بن علي. ثم رحلنا إلى بيكند ثم دخلنا بخارى وصرنا إلى الجيهاني وهو كاتب أمير خراسان، وهو يُدعى بخراسان الشيخ العميد، فتقدّم بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضي حوائجنا، ويزيح عللنا في كل ما نريد فأقمنا أياما»[٢١]. ويتبيَّن لنا أنَّ الرَّحالة أثبت جملة من المعطيات التي سجَّلها ببخارى؛ فقد وصف مناخها الشتويّ القاسيّ، وذكر دراهمها المختلفة، وعرض أسماء الشَّخصيّات التي التقاها هناك.

ويذكر أحد الباحثين أن مرور ابن فضلان دون وصف خصائص تلك المناطق التي شكلت محطات متقطعة قبل الوصول إلى بخارى مردّه أنه فارسيّ، لذلك لم يأبه لها بحكم معرفته الجيدة بها[٢٢]، لكن هذا التسويغ يجانب جادة الصواب لأن الرحالة كان يكتب للمتلقي وليس لنفسه، ونرى أن تحاشي السارد رصد ما شاهده في تلك الأماكن والمناطق أمر لا يخلو من أغراض تداولية، فابن فضلان يصدر عن وعي بقوانين التخاطب؛ إذ إنّه ارتكن إلى «قانون الإخبار»؛ وهو من قوانين التخاطب التداولية التي اقترحها ديكرو، مؤداه أن على «المتكلم أن يقول ما لا يعرفه المخاطب، وإلا كان أمام أجوبة لاذعة من قبيل «أعرف ذلك» أو «لم تعْلمني بشيء جديد»»[٢٣] .

(٢٠) الرحلة، ص٤٣.

(٢١) الرحلة، ٤٥-٤٦.

(٢٢) الرحلة والنسق، مرجع مذكور، ص: ٢٣٩.

(٢٣) التداوليات وتحليل الخطاب، ص: ٢٢٥. وأيضا: تداولية الخطاب السردي، ص: ١٢١.

أما تلك المناطق فكانت معروفة لدى المجتمع العربي على عهد الدولة العباسية التي عرفت اتساعا كبيرا وصل إلى بلدان فارس، لذلك لم يأبه بها ابن فضلان، وهو ما يعزز تداولية خطابه بوصفه موجَّها وينضبط «لمسلمة القدر»[٢٤]، حيث جعل الحكي يفيد «القدر المطلوب من الإخبار»[٢٥].

والمتأمل لرحلة ابن فضلان يلحظ أنه كان يعمد إلى الدقة والضبط في إيراد بعض المعطيات، ويمكن توضيح بعض الألفاظ الدالة عليها في الجدول الأتي:

الزمـــــان	المسافة	العملة
- يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة. - يوم واحد. - ثلاثة أيام. - أقمنا يومين. - أحد عشر يوما. - فأقمنا ثمانية وعشرين يوما. - فأقام على ذلك ثلاثة أشهر.	- أكثر من مئتي فرسخ - خمسون فرسخا - سبعة عشر شبرا - سبعون يومًا. - أقل من مسيرة فرسخ. - طولها أكثر من مئة ذراع.	- الغطريفية مئة منها بدرهم فضة. - أربعون منها بدانق. - ستة منها بدانق. - الدرهم الطازجة وزنها أربعة دوانيق ونصف. - حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل.

يتبدّى لنا من خلال هذا الجدول أنَّ الرَّحالة يذكي المسرود بالتاريخ الزمنيّ، وذلك بإيراد بعض التواريخ المتعلقة بالانطلاق من نقطة معينة، ومدة الإقامة. كما أنه يعمد إلى إيراد المسافات التي تفصل بين الأمكنة المختلفة راميا إلى تقديم معرفة للمتلقّي الذي قد يحتاج إليها يوما مًا إذا فكّر بالقيام برحلة إلى هذه الأصقاع. والملاحظ أيضا أنّ الرحالة يقدم عملة الآخر مقارنا وزنها بقيمة العملة العربية آنئذٍ، هذه الدّقة المقصودة من ابن فضلان تسهم، بشكل قوي، في إضفاء المصداقيّة والبعد الواقعيّ على الرّحلة، وهو ما يجعلها «وثيقة تاريخية معتمدة»[٢٦].

والسَّرد يُظهر لنا أن السّارد هو نفسه الشخصية الرئيسة/ابن فضلان؛ فالرَّحالة يحكي بضميرين: المتكلم المفرد، والمتكلم الجمع، وفي الجدول الأتي بيان لذلك:

ضمير المتكلم المفرد	ضمير المتكلم الجمع
ندبت أنا – وأنا معهم-ذكرتُ – فسلّمتُ- ورأيت- سمعتُ- يحذرونني- دخلتُ- نظرتُ- لحيتي – كنتُ – أدنيها – أخرج – أنامُ- وأنا مدثر- خدي- قرأتُ...	فرحلنا- ورحلنا – صرنا- فأقمنا- سرنا- قدمنا – تنكّرنا – فأصبنا- قطعنا- دار لنا – فدخلنا- فقلنا- فتكارينا- فكُنا – أكرمنا- انصرفنا – رأينا- علينا...

(٢٤) قسم غرايس قوانين التخاطب إلى أربع مسلمات هي: مسلمة القدر، مسلمة الكيف، مسلمة الملاءمة، مسلمة الجهة.
أُنظر: التداوليات وتحليل الخطاب، ص:٢٢٣- ٢٢٤.
(٢٥) التداوليات وتحليل الخطاب، ص: ٢٢٣.
(٢٦) الرحلة في الأدب العربي، ص:٦٤.

يحكـي الرحّالــة المـسرود بضمــير المتكلم دون أن يتخفَّــى أو يتقمَّــص شــخصية أخــرى كمــا في الأنــواع الأدبيّة الأخرى كالروايــة مثلا؛ لأنَّ الرّحلة «حكاية ســير-ذاتية لتجربة الســارد»[٢٧]، والرحالــة يُعــدُّ «بطل قصته الخاصــة على مسرح أجنبي، وهو مؤرخ نفســه وراوية نفسه والجوّاب الأحــب إلى نفســه»[٢٨]. وعــلى هــذا الاعتبــار يعمد الرحالــة إلى الحكــي بصيغة الأنا ليســجّل تجربته الشــخصية التي خاضها في الرحلــة. بيد أنَّه يسرد بضمــير المتكلم الدّال على الجماعــة –كذلك- ليدل عليــه وعلى رفقته المكونة من الوفد الذي أشرنا إليه ســابقا، وضمير الجماعة «نحن» يدلّ «دلالة قوية على صدق التجربة وصدق وقوعها»[٢٩]؛ كما أن من تقاليد السفر أن تكون الرحلة مع رفيق أو جماعة حسب التصور الإسلامي[٣٠].

٣- بلاغة الخبر:

يحــضر الخــبر في النَّســيج الرِّحلي بوصفه مكوّنًا بنائيًّا يتعايش مع المكوّنات السَّرديّة الأخرى التــي تؤســس خطــاب الرحلــة، ويمكن تقســيم المدوَّنــة الخبريّــة التــي حوتها رحلة ابــن فضلان على قســمين: أخبــار واقعية وقعت فعــلا؛ إذ إنها مرتبطة بشخصيات تاريخيّة حقيقيّة، وأخبار غير واقعيّــة تندرج في إطــار العجائبي. وتضطلع هذه الأخبار بوظائف متعــدّدة منها الوظيفة الإخبارية الَّتي تســعى إلى تقديم المعرفة للمتلقي، والوظيفة الحجاجيّة؛ حيث تهدف بعض الأخبار، في رحلة ابن فضــلان، إلى تعضيد بعض الدّعاوى التي يعرضها الرحالة في متن رحلتــه، الأمر الذي يجعل من هذه الأخبــار آلية بلاغية تروم تثبيــت المعارف في ذهن المتلقي، ومن ثمّ، ينتقل الخبر بوصفه أداةً إمتاعيّةً تروِّح على المتلقي إلى اســتراتيجيّة خطابيّة وتقنيّة تأثيريّة تُعــزِّز بلاغة الخطاب الرحلي وتروم إذعان المتلقي ليســتأمن المسرود، ثمّ الوظيفة التّواصلية؛ حيــث إن الرّحالة يعمد إلى إيــراد الأخبار لتحقيق بعض الغايــات التواصلية المضمرة، ولا تخلو هذه الوظيفة من أبعاد حجاجيّة.

ومــن الأخبــار التي أوردهــا ابن فضلان في رحلته قوله:» لقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جمــلا ليحمــلا عليهــا حطبا من بعــض الغياض، فنســيا أن يأخذا معهما قدّاحة وحرّاقة وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشــدة البرد»[٣١]. يروي الرَّحالة هذا الخبر في ســياق حديثه عن البرد القارس والشَّــديد الــذي تعرضت لــه البعثة التي كان هو على رأســها في «الجرجانيــة»، ولكي يُقنع المتلقي بصــدق المعطى المقدّم، عمــد إلى إيراد هذا الخــبر الذي يؤكِّد خطورة هذا البرد؛ إذ إنه تســبَّب في مــوت الجمال والرَّجلين. يتحــوَّلُ هذا الخبر من بُعده التَّخييلي الذي يشحذ اهتمام المتلقي ويسطو على تفكيره إلى آلية إقناعيّة تروم حمله على الاقتناع بخطــورة البرد الذي تعرض له بمعية رفقته، وهو ما يدل على استماتة البعثة التي كافحت هذا الخطر الطبيعيّ في ســبيل الوصول إلى الهدف الذي رسمه مسير الرحلة.

ونقرأ، في مدونة الرحلة، خبرا آخر عاينه ابن فضلان يقول فيه: «ولقد نزلنا يوما على رجل منهم فجلســنا وامرأة الرجل معنا فبينما هي تحدّثنا إذ كشــفت فرجها وحكّته، ونحن ننظر إليها فســترنا وجوهنا وقلنا أســتغفر اللــه، فضحك زوجها وقال للترجمــان: قــل لهم تكشــفه بحضرتكــم فترونه وتصونــه فلا يوصــل إليه هو خير مــن أن تغطيه

(٢٧)عبــد النبي ذاكر، الرحالة العرب ودهشــة اكتشــاف الغرب، منشورات الزمن، ع٥١، فبراير ٢٠١٥م، ص: ٢٦ .
(٢٨) عبد النبي ذاكر، المصدر نفسه، ص: ٢٧.
(٢٩) بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، ص:١٢٤.
(٣٠) الرحلة في التراث العربي، ص: ٣٦.
(٣١) الرحلة، ص: ٥٢.

وتمكّن منه»[٣٢]. يُشكِّل هذا الخبر حجَّةً يقدِّمها الرَّحالة تدعيمًا لفكرةٍ أخبرنا بها مؤدّاها عدم تستّر النساء في بعض القبائل التركية؛ إذ يؤْثِرن أن يبقين عاريات أمام كل من هبّ ودبَّ من النَّاس، ولأنّ تقبُّل هذا المعطى قد يثير الشكَّ في نفس المتلقي، على كون أن ستر العورة غريزةٌ جُبل عليها الإنسان، سارع ابن فضلان إلى تعضيد هذا المعطى بخبر كان مشاركا وفاعلا فيه. كما أنَّ هذا الخبر، كذلك، يثبت فكرة أخرى ذكرها في ثنايا رحلته وهي عدم معرفتهم للزنا[٣٣]؛ فعلى الرغم من هذه الظاهرة التي تبرز دناءة المرأة في مجتمعهم، فعري نسائهم لا يعني انصرافهن إلى ممارسة الزنا.

ويلفت الرَّحالة أنظارنا إلى رذيلة أخرى تبرز ارتجاج القيم الاجتماعيَّة وانحطاطها في بلاد التُّرك، وهي ظاهرة اللّواط، فـ«أمر اللواط عندهم عظيم جدًا»[٣٤]، ويسوق خبرا يؤكّد هذه الظَّاهرة المتفشِّية في قوله: «ولقد نزل على حي كوذركين –وهو خليفة ملك الترك- رجل من أهل خوارزم، فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم، وكان للتركي ابن أمرد، فلم يزل الخوارزمي يداريه ويراوده عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد، وجاء التركي فوجدهما في بنيانهما...»[٣٥]. والأمر نفسه يضطلع به خبر آخر يرويه ابن فضلان مؤكّدا قذارة قومٍ من الأتراك اسمهم «الباشغرد»؛ حيث قال: «ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم، وكان يخدمنا، فرأيته وجد قملة في ثوبه فقصعها بظفره، ثم لحسها وقال لما رآني: جيد»[٣٦]. ويروي الرّحالة، متحدِّثا عن الصَّقالبة، ما استرعى انتباهه من كثرة الحيَّات عندهم قائلا: «حتى إن الغصن من الشجرة لتلتفّ عليه العشرةُ منها والأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم»[٣٧]. ولم يكتفِ ابن فضلان بإيراد هذه الخصيصة التي تطبع الطبيعة الصقلبية، بل عرّج إلى تقديم خبر يقوم على إضفاء الشّحنة الإقناعية لجعل المتلقي يذوب في حرارة السّرد ويسلِّم بمصداقية المعطيات المقدّمة، وهو ما نستشفه من قوله: «حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع، وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جدًا فوقفت أنظر إليه إذْ تحرّك فراعني ذلك وتأملته فإذا عليه حيّة قريبة منه في الغلظ والطول فلما رأتني سقطتْ عنه وغابت بين الشجر فجئت فزعا فحدّثت الملك ومن كان في مجلسه فلم يكترثوا لذلك وقال: لا تجزع فليس تؤذيك»[٣٨]. ومن المعتقدات الغريبة التي يؤمن بها الصقالبة، والتي أوردها ابن فضلان في مدوَّنة رحلته، معتقَد مؤدّاه أنَّ كل إنسان يتسم بالفطنة والدهاء وله «حركة ومعرفة بالأشياء قالوا: هذا حقّه أن يخدم ربّنا فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلا وعلّقوه في شجرة حتى يتقطّع»[٣٩]. إنَّ هذه الفكرة تجعل المتلقي يصنفها في دائرة المحتمل صعب التَّحقيق؛ إذ يصعب عليه تمثّلها في ذهنه، خصوصًا المتلقي الذي يتوجه له ابن فضلان بخطابه، ومن ثم لجأ إلى عرض خبر هو: «ولقد حدّثني ترجمان الملك أن سنديا سقط إلى ذلك البلد، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه وكان خفيفا فهما، فأراد جماعة منهم الخروج في تجارة لهم، فاستأذن السنديّ الملك في الخروج معهم فنهاه عن ذلك، وألحّ عليه حتى أذن له، فخرج معه في سفينة فرأوه حركًا كيّسا، فتآمروا بينهم وقالوا: هذا يصلح لخدمة ربّنا فنوجّه به

(٣٢) الرحلة، ص: ٦٢-٦٣.

(٣٣) يقول ابن فضلان:» وليس يعرفون الزنا ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين». الرحلة، ص:٦٣.

(٣٤) الرحلة، ص: ٦٥.

(٣٥) الرحلة، ص: ٦٥.

(٣٦) الرحلة، ص: ٧٣.

(٣٧) الرحلة، ص: ٨٥.

(٣٨) الرحلة، ص: ٨٥.

(٣٩) الرحلة، ص: ٨٨.

إليــه، واجتازوا في طريقه بغيضــة، فأخرجوه إليه وجعلوا في عنقه حبلا وشدّوه في رأس شجرة عالية وتركــوه ومضوا» [٤٠]. يجعل هــذا الخبر احتمالية الفكرة المسرودة حقيقة صادقة؛ فالرجل الســنديّ ضحية واقعيّة لكياســته ونباهتــه، ولعلَّ أيّ رجل فيه من الصفات ما في السنديّ أن يتعرض للصنيع نفســه. إنَّ الخبر هنــا حجَّةٌ قاطعةٌ تعــزِّز الأفكار التي يعرضها الرّحالة في مدونته.

ممّا ســبق، نستنتج أنّ الأخبار التي سيقت في متن رحلة ابن فضلان، تضطلع بوظيفة تداوليَّة تأثيريّة، تــروم حمل المتلقي على تصديق المعطيات المذكــورة في بقــاع الرِّحلــة؛ إذ إنَّ الوقائع نفســها تصبح مــن باب الخيال والوهم في غياب الوســائل القمينة بإبرازها بوصفها حقائق. وقد شكل الخبر آليــة خطابيّة أســهمت في إكســاب النّــص الرّحلي بلاغتــه، من خــلال التأكيــد على صدق مــا قيل في الرحلة. ومن ثمّ، يمكن القول إنَّ الأخبار المطروحة في مدونــة الرحلــة، إلى جانــب تقديمهــا للمعرفة والمعلومــات، تشــتغل وتتضافر من أجــل تحقيق التواصل مع المتلقي، والعمل على الــتأثير فيه.

وتســمح لنــا قــراءة الأخبــار الــواردة في رحلــة ابن فضلان باســتبيان المقاصــد التواصلية التي كان يرمــي إليها الرحالــة، إذ إنَّ الخبر بقدر مــا يقدّم معرفة معيّنة في مســتواه الدلالي، يختزن أبعــادًا تداوليّــةً تتوجه إلى المتلقي بغــرض التَّأثير فيــه. والنظرة العامة لرحلة ابــن فضلان تؤكد أن المســتوى التواصلي للخبر ينحــصر في التوجه نحو المتلقــي بهدف نصحــه وإرشــاده ووعظه، نلمس هــذه المقاصــد في ملفوظــات كثيرة، ونذكــر منها على ســبيل التَّمثيل خبرا جاء فيــه: «لقد بلغني أن رجلين ســاقا اثني عشر جملا ليحملا عليها حطبا من بعض الغياض، فنسيا أن يأخذا معهما قدّاحة وحرّاقــة وأنهما باتــا بغير نار فأصبحــا والجمال موتى لشــدة البرد»[٤١]. يفصح هذا الخبر عن بعده الوعظــيِّ؛ إذ يتوجَّــه إلى المتلقي من خلال حثِّه على الفعل الإنجازي وهو عدم نسيان القدّاحة والفتيل لأن نســيانهما ســيؤدي إلى الهــلاك كما حصل مع الرجلين؛ فشدّة البرد وقوته في «الجرجانية» لا تسمح للإنســان بالمقاومة. ونستشــف المقصــد التواصليّ المتمثِّل في إســداء النُّصح وإرشاد المتلقي من خلال تعريفــه بمآزق تلــك البلدان، وحِيل تلك الشــعوب ومكائدهــا في خبر يقول فيه الرّحالة: «وســمعتهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رســول الله تقربا بهذا القــول إلى مــن يجتاز بهم من المســلمين لا اعتقادا لذلك»[٤٢]. يفصح هذا الخبر عن أبعاده الإرشاديّة؛ حيــث ينبِّه ابن فضلان المتلقي إلى قبيلة من الأتراك التي تظهر إسلامها للمســلمين طمعا في عطاياهم وهباتهــم. وغير بعيد عــن المقصديّة نفســها التي طبعــت رحلة ابن فضلان نقرأ خبرًا آخر هو:» وإذا رأوا إنســانا له حركة ومعرفة بالأشــياء قالوا: هذا حقّه أن يخدم ربّنــا فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلا وعلّقوه في شــجرة حتى يتقطــع»[٤٣]، يحمل الخبر قيمة وعظية تفيــد المتلقي من خلال تقديم معرفة تتعلق بخصيصة من خصائص المجتمع الصقلبي الــذي يعتقد معتقــدات غريبة عــن المتلقي، ووجد الرَّحالة أن من مهمّته أن يعرّفه بها ويكفيه شرها، وبناءً عليــه يتوجه هذا الخبر ضمن مقصد مضمر يفيد نصح المتلقّي بعدم إظهار الكياسة والفراسة وإلا ســيؤول به الأمر إلى خدمة ربِّ الصقالبة بعد لف عنقه بالحبل حتى يتقطع. وفي خبر آخر يقول ابــن فضلان: «وإذا كانوا يســيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه ســلاحه، انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه. وهذا رسم لهم، ومن

(٤٠) الرحلة، ص: ٨٨.

(٤١)الرحلة، ص: ٥٢.

(٤٢) الرحلة، ص: ٦٢.

(٤٣) الرحلة، ص:٨٨.

حطّ عنه سـلاحه وجعله ناحيـة وبال، لم يعرضوا لـه»[٤٤]. يحتوي الخبر على نصيحـة ضمنية تروم إرشـاد المتلقي، وتعريفه بطريقة تعامل الصقالبة مـع البائل، ومن ثم فالفعل الإنجازي الذي يتوخاه الخبر هو حمل المتلقي على نزع السِّلاح أثناء البول كي لا يُتعرض للنهب والسرقة من قبلهم.

يتضح، ممّا سبق، أنَّ المقاصد التواصليّة تتحقَّق من خلال ما يُضمره الخبرُ من أبعاد تداوليّة تتوجَّه إلى المتلقـي بغـرض التَّأثـير فيه، ويُشـكِّل الوعظ والإرشـاد وتقديم النّصح أهمَّ المقاصد التي طغت على أخبـار الرِّحلة؛ فالهمّ الَّذي شـغل ابن فضلان هو تقديم معرفة نفعيّة تفيد المتلقي وتجعله يعي جيِّـدا تلـك البلدان والأوطـان وما تتَّصـف به من مخاطر وأهوال.

٤- بلاغة الحوار:

يحـضر الحوار في رحلة ابن فضلان بوصفه مكوِّنًـا بنيويًّـا مـن المكوِّنات التـي تُشـكِّل البناء السَّردي للرحلة؛ وإذا كان الحوار يضطلع بوظائف مختلفة من أهمّها استنبات السّرد وتمطيط حركة الحكي، وإضفاء السّـمة الأدبيّة عـلى النّص، فإنه ينهـض، كذلـك، بوظائـف أخرى إلى جانـب هذا، ولعـل من أبرزهـا «الإيهام بالواقـع»[٤٥]، إذ يغدو الحـوار، وَفق هذا التصوّر، آلية خطابيّة تسـهم في إكسـاب المصداقية للوقائع والأحـداث المسرودة في المتن الرحـلي، إنه تقنيـة حجاجية تقـوِّي الطَّرحَ المعرفيَّ الذي بسطه ابن فضلان في رحلته.

يشـتغل الحـوار، في الرحلة قيد التحليل، من أجـل تحقيق أغـراض تواصلية مختلفـة، كما أنه يبرز واقعيّة الرّحلة، لأن ابن فضلان يعمد إلى إيراد حوارات مع بعض الشـخصيات من لحم ودم ولها وجـود تاريخيّ واقعـيّ في رحلته، ليقنـع المتلقي بصـدق الوقائـع والأحـداث التـي حوتهـا مدونة رحلته، ومن ثمّ، يجسِّـد الحـوار التّفاعل التّواصليّ الّذي كان يبادر به الرّحالة مع بعض الشخصيات التي كان يصادفها في رحلته، إنه مكمن من مكامن «تعدد الأصوات»[٤٦].

وبالرجـوع إلى متن الرحلـة، نصادف حوارات كثيرة نذكر منها على سـبيل التمثيـل حوارا أجراه الرحالـة مع «تكين» ورجل من الأتراك بعد وصول البعثـة إلى بلاد الترك يقول فيـه: «ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شـديد وكان تكين يسايرني وإلى جانبـه رجل من الأتـراك يكلمـه بالتركية فضحك تكـين وقـال: إن هذا التركـي يقول لـك: أي شيء يريـد ربنا منا هوذا يقتلنا بالبرد ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه؟ فقلت له: قل له يريد منكم أن تقولوا لا إلـه إلا الله فضحك وقال: لو علمنـا لفعلنا»[٤٧]. يتـآزر هذا الحوار مع الاسـتراتيجية المعرفية التي سـكّها الرحالة؛ إذ إنَّ وظيفته هـي تقديم معرفة حول المنـاخ القاسيّ الذي لقيه في بـلاد الترك، غير أنَّ للحوار مقاصدَ مضمرة، فمن جهة يقدِّم الرِّحلةَ بوصفها خطابًا صادقًا، ويوثِّق اللَّحظة التاريخيَّة التي مرَّ بها ابن فضلان وبعثته على التّرك، كما أنّه حجّـةٌ تؤكِّد قسـاوة المناخ التي تجشَّـمتها البعثة. وعـلى الرّغم مـن أن ابن فضلان أجـاب مازحا، إلا أنّه لخّـص في إجابته المهمّـة المنوطة به وهي نشر الدين الإسـلاميّ في تلك الأصقـاع البعيدة، بوصفه خليفـةَ الخليفة المقتـدر في الرحلة والمسـؤول عن هذه المهمـة، والمقتدر بدوره خليفة لله عز وجل في الأرض.

ونجد في بقعة أخرى، داخل مدونة الرحلة، حوارا يسـوقه ابن فضلان ضمن خـبر يقول فيه: «فلما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك(...) فقـال: قفـوا، فوقفـت القافلة بأسرهـا وهي نحو

(٤٤) الرحلة، ص: ٨٨-٨٩.
(٤٥) معجم السرديات، ص:١٥٩.
(٤٦) المصدر نفسه، ص: ١٥٩.
(٤٧) الرحلة، ص:٦١.

ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل، ثم قال: ليس يجوز منكم أحد. فوقفنا طاعة لأمره، فقلنا له: نحن أصدقاء كوذركين، فأقبل يضحك ويقول: من كوذركين أنا أخرى على لحية كوذركين. ثم قال: بكند يعني الخبز بلغة خوارزم فدفعت إليه أقراصا، فأخذها وقال: مرّوا قد رحمتكم»[٤٨]. يبرز هذا الحوار واقعيّة الحادثة التي تعرَّضت له قافلة البعثة، ويقرب المتلقي من العراقيل التي كانت تصادف الرَّحالة ومن معه؛ إلى جانب هذا، وكما أشرنا سابقا، فالحوار الدَّائر بين الرَّحالة والرجل قاطع الطريق، أبان لنا صورة ابن فضلان الذي تعامل بدهاء وحنكة مع هذا الموقف.

ومن الحوارات المهمَّة التي جسّدت تحقيق مقصديّة الرّحلة من قِبل ابن فضلان وبعثته، ما ذكره حينما التقى بملك الصقالبة ألمش بن يلطوار، يقول:» فلمّا دخلت إليه أمرني بالجلوس، فجلست ورمى إليّ كتاب أمير المؤمنين، فقال: من جاء بهذا الكتاب؟ قلت: أنا. ثم رمى إليّ كتاب الوزير، فقال: وهذا أيضا؟ قلت: أنا. قال: فالمال الذي ذكر فيهما ما فعل به؟ قلت: تعذّر جمعه وضاق الوقت وخشينا فوت الدخول فتركناه ليلحق بنا. فقال: إنما جئتم بأجمعكم وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إليّ حتّى أبني به حصنا يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني، فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها. قلت: هو كذلك، إلا أنا قد اجتهدنا...»[٤٩]. يؤكد هذا الحوار أنَّ الرَّحالة قد التقى بملك الصقالبة وجهًا لوجه، وتحدَّث إليه وناقشه في مسألة المال الذي أضاعته بعثته. إنَّ الوصول إلى هذه الأصقاع البعيدة في ظل الأجواء الخطيرة، والمخاطر التي حدّقت بالبعثة في طريق رحلتهم، يشكّل نقطة شكٍّ تثير تساؤل المتلقي، الأمر الذي يجعل الرحالة يتوسَّل بالحوار بوصفه موجِّهًا حجاجيًّا يقوم على إضفاء المصداقية والواقعية. لأن الوقائع -كما أشرنا سابقا- تبقى مجرد أوهام إذا لم تعضّد بما يؤكد حدوثها.

وعموما يتأطَّر الحوار، في رحلة ابن فضلان، ضمن الاستراتيجيَّة الخطابيَّة التي تروم «توضيح فكرة وتعزيز رأي أو تفنيده ودحضه»[٥٠]، كما يضطلع بوظيفة التأشير على واقعية الأخبار والوقائع الواردة في مدوَّنة الرِّحلة، إنَّه عنصرٌ حجاجيٌّ يتوخَّى التأثير في المتلقي من أجل حمله على تصديق المعطيات التي تحويها الرحلة.

٥- بلاغة الوصف:

يُشكِّل الوصفُ المكوِّنَ الجوهريَّ والعمود الفقريَّ في أدب الرحلة، ولعلَّ هذا ما جعل الدارسين يعدُّون الرحلة «خطابًا وصفيًّا»[٥١]؛ إذ إنَّه دعامة أساس من دعائم البناء الفني في خطاب الرحلة، إنه تقنيَّة مرافقة للسرد؛ فـ «السارد في الرحلة يصفُ ليسرد، ويسرد ليصف. والوصف ليس مفارقًا للسرد من جهة، ولا يُعدّ تابعا له من جهة ثانية، بل إن الوصف يصبح، في نهاية الأمر، مستوى من مستويات السرد»[٥٢]. إنَّ الوصفَ، انطلاقا من هذا التصوّر، آلية مهمَّة يتوسّلُ بها الرحّالة في رسم ما يراه من مشاهد وأماكن وأشخاص بغية تقديمها إلى المتلقي. وعلى عكس السَّرد الذي يرتبط بالحركة، ويؤرخ للمرجعية الزمنية، فالوصف هو «أداة تشكّل صورة المكان»[٥٣]، أي إنه مُرتبط ومتعالق بتوثيق الأمكنة التي صادفها الرحالة في رحلته.

ينبني الوصف، في رحلة ابن فضلان، وفق

(٤٨) الرحلة، ص: ٦٦.
(٤٩) الرحلة، ص: ٨١.

(٥٠) هشام مشبال، البلاغة والسرد والسلطة، ص: ١٠٤.
(٥١)- سعيد يقطين، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص: ١٩٦.
(٥٢) أدبية الرحلة، ص: ٣٧.
(٥٣) حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص: ٨٠.

تصوّرنـا، على أسـس تداوليّـةٍ وحجاجيَّـةٍ تعضّد المسـار الخطابيّ الَّذي سـكّه الرَّحالـة؛ فالوصفُ هو القمين بإبـراز واقعيَّة الرّحلة، من خلال جذب المتلقّـي وجعلـه يسـبح في العوالم التي يرسـمها الرَّحالة؛ فهذه العوالم والأمكنة والبلدان والمشـاهد الدرامية التي واجهها ابن فضلان يعكسها الوصف «إنه يرسـم أو يمثل هذه الأشـياء، ويشكل صورا لهـا»[٥٤]، هكذا يغدو الوصف سـحرًا يفتن المتلقي ويسـتميل انتباهه ويؤثر فيه. كما يتغلف الوصف بأبعادٍ حجاجيَّة تهـدف إلى التّأثير في المتلقي بغية تثبيت بعض المواقف التي يعرضها الرحالة وحمله على الاقتناع بها.

يتميز الوصف في رحلة ابن فضلان، بكونه آلية تقدّم المعرفة؛ فالرَّحالة يتوسَّل به من أجل «تأثيث خطاب معرفي مضبوط يهدف من خلاله إلى تمرير معرفـة معينـة للمتلقـي»[٥٥]. وعلى هذا الأسـاس يحضر الوصف بوصفه جسرا يربط بين المرسـل/ الرّحالـة والمتلقّي، بهـدف التأثير فيـه، وذلك من خلال انتقاء جملة من المعطيات حول الأماكن التي زارهـا ابن فضـلان؛ بيد أن اسـتراتيجيَّة الخطاب الرِّحلي لا تنبني عـلى الإخبار فقط، بل تتعدَّى ذلك إلى المقصديـة التواصليَّة التّأثيريّـة؛ إذ إنَّ الرحالة يخـبر ليؤثِّر، ويعـرض بعض الوقائـع والأحداث لينبّـه المتلقـي إلى بعـض الظواهر التي اسـترعت انتباهـه، ويمكن حصر بعـض المقاصد التواصلية في الوعظ والإرشـاد. وعلى اعتبار أن النص الرحلي يمثل خليطا من المعارف والمعلومات التي يؤطرها الوصـف، سـنحاول تقسـيم هذه المعـارف إلى ما يأتي:

(٥٤) سـيمور شتمان، الحجاج والسرد، تر: محمد مشبال وعبد الواحـد العلمي، مجلة الصورة،ع٥، شـتاء ٢٠٠٥م. ص:٥٦.

(٥٥) سـعيد جبـار، التخييل وبناء الأنسـاق الدلالية، ص: ٢٥٧.

أ-بلاغة صورة المكان/ المعرفة الجغرافية:

ترتبـط الرحلـة ارتباطا وثيقـا بالجغرافيا، لذلك يؤثر كثير من الدارسـين تسـمية أدب الرحلة بالأدب الجغرافي؛ لأنَّ الرحالة يكون مشغولا بوصف الظَّواهـر الطبيعيّـة، والبيئـة الخاصـة بالأوطان والبلدان التي زارها، إضافة إلى وصف التَّضاريس والمنـاخ وكلّ مـا يتعلق بالأرض بشـكل عامّ؛ وهو في هذا مثل الجغارفة الذين يركزون على «دراسـة أنظمة الأرض»[٥٦]، ومن ثمَّ، يمكن القول إنَّ الرحلة «نـص يبرز الخصائص المميزة للأمكنة والسـمات التـي تنفرد بها عن غيرهـا»[٥٧]، غير أنَّ رصد هذه الخصائـص لا يخضع لمنطق علمـيٍّ مضبوطٍ؛ لأنَّ ذاتيَّـة الرحالـة ومشـاعره ومعتقداتـه تتحكم في مسـير هذا الوصف؛ فالـذات «لا تكفّ عن التفاعل مـع كل المقتضيـات التي تتدخـل في تحديد معنى قضية مـا»[٥٨]، هـذا التفاعل يعكس لنـا انصهار البلاغة في صياغة عديد من أصناف المعرفة المتعلقة بالمكان الجغـرافي[٥٩]، وإلى جانب ما تقدمه الرحلة من معارف ومعلومات تلخص وظيفتها الإخباريّة، تحـضر الوظيفـة التواصليّـة وهـي «مـا يقصده المتكلـم من حمـل مخاطبـه على معرفـة مقصده الإخبـاري»[٦٠]؛ أي إنَّ المعرفـة المقدّمة تسـعى إلى التأثير في المتلقي من خلال التّوجه الضّمني المضمر في خطاب الرحلة، وللكشف عن هذه المقاصد التي أسَّسها الرّحالة، لا بد من «تجاوز الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية»[٦١]؛ فالدلالة الطبيعيَّة ترتبط

(٥٦) مدخل إلى علم الجغرافيا، ص:٣.

(٥٧) محمـد مشـبال، في الحجـاج وهوية الأمكنـة، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع٤، ص: ٧٠.

(٥٨) حسـن الباهـي، تحليل الخطـاب: مقاربـة تداولية معرفية، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع٤، ص:١٨

(٥٩)المصدر نفسه، ص:٧٠.

(٦٠)- سعيد يقطين، السرد العربي، ص: ١٠.

(٦١) سـعيد جبـار، التخييل وبناء الأنسـاق الدلالية، ص: ١٣٤.

بالمستوى التركيبيّ الذي يفصح عن مجموعة من الأخبار والمعلومات والمعارف المقدّمة في الرحلة، بينما ترتبط الدلالة غير الطبيعيَّة بالمستوى التداوليّ، ومن ثمَّ، لا انفكاك من اللُّجوء إلى العمليّات التأويليّة بغية فكِّ شفرات نص ابن فضلان، لفضّ الغشاوة عن المقاصد التواصلية المضمرة فيه.

إن نظرة عامَّة لمتن الرحلة، تؤكِّدُ أنّ الرحالة يربط المعرفة الجغرافيّة المعروضة بجملة من المقاصد التي تروم التأثير في المتلقي، وتتجلَّى هذه المقاصد في النصح والإرشاد والوعظ، يقول ابن فضلان: «فرأينا بلدًا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة»[٦٢]. ويقول في مكان آخر:» وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها، وهوّلوا علينا الأمر وعظّموا القصة، فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا، فكان كل رجل منا عليه قرطق وفوقه خفتان، وفوقه بوستين، وفوقه لبادة وبرنس لا تبدو إلا عيناه وسراويل طاق وآخر مبطّن وران وخفّ كيمخت وفوق الخف خفٌّ آخر فكان الواحد إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب»[٦٣]. تفصح هذه المقاطع الوصفية، في مستواها الإخباري، عن خصيصة من الخصائص المناخيّة التي تتعلَّق بتلك الأصقاع التي وصل إليها الرحالة، هذه الخصيصة المتمثّلة في البرد الشديد والقارس، لكن هذه المعارف تنطوي على نصائح ضمنيّة يوجهها ابن فضلان للمتلقي، من أجل حمله على تصديق هذه المعطيات ومن ثمّ، الاحتياط والحذر لأيّ رجل حاول أن يزور هذه الأوطان والبلدان. وتتجلى الأبعاد التأثيرية في الرحلة، كذلك، من خلال ملفوظ آخر يقول فيه الرّحالة: «فنزلنا على نهر جيخ وهو أكبرُ نهر رأيناه وأعظمه وأشدّه جرية، ولقد رأيت سفرةً انقلبت فيه فغرق من كان فيها وذهبت رجال كثير من الناس وغرقت عدة جمال ودواب ولم نعبره إلا بجهد»[٦٤]. يقدِّم هذا الملفوظ بعض المعطيات حول نهر «جيخ» فقد وصفه الرحالة باستعمال أسماء التفضيل (أكبر، أعظم، أشد) من أجل تعظيم وتهويل هذا النهر للمتلقي، ونظرا لخطورة هذا النهر وهوله، ساق ابن فضلان خبرا مؤدّاه إنّ سفرة غرقت فيه وغرق معه الرجال ووكذلك الدوابّ على السواء، والخبر محكي من قبل الرحالة إذ قال: «رأيت»؛ حيث يؤشِّرُ على المشاهدة والمعاينة. يعضّد هذا الوصف – وصف نهر جيخ- الاستراتيجية التواصلية المبنية على الوعظ والإرشاد؛ إذ إنَّ الرحالة يعظُ ضمنيًّا ويتوجَّه إلى المتلقي دافعًا إيَّاه إلى تبني الحذر والحيطة من هذا النَّهر الخطير الذي يؤدِّي إلى الهلاك في غياب الحذر والجهد والحيطة.

ومن الخصائص التي طبعتْ طبيعة أرض الصَّقالبة ما وصفه ابن فضلان في قوله: «ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى أن الغصن من الشجرة لتلتفّ عليه العشرة منها والأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم، حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر مئة ذراع، وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جدا فوقفت أنظر إليه إذ تحرّك فراعني ذلك وتأملته فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول فلما رأتني سقطت عنه وغابت بين الشجر فجئت فزعا فحدّثت الملك ومن كان في مجلسه فلم يكترثوا لذلك وقال: لا تجزع فليس تؤذيك»[٦٥]. إلى جانب ما يقدِّم هذا الوصف من معرفة مهمّة عن تميّز الأراضي الصقلبية بكثرة الحيات وانتشارها في كل مكان، ينطوي هذا الوصف على مقصد تأثيري يحاول حمل المتلقي

(٦٢) الرحلة، ص:٥١.
(٦٣) الرحلة، ص:٥٩.
(٦٤) الرحلة، ص: ٧٢.
(٦٥) الرحلة، ص:٨٥.

على التفاعل والإنجاز خـارج النص؛ فابن فضلان يحـاول إقناع متلقيه بـأن الحيَّات في هذا البلد غير مؤذية برغم كثرتها، وقد عزَّز هذا المنحى التواصلي بحواره مع ملـك الصقالبة الذي أكّد له أنها حيات مسالمة وغير مؤذية.

ب- بلاغـة صـورة الإنسـان/ المعرفـة الأنثروبولوجية:

إلى جانـب النَّـوع الأوَّل المتعلـق بوصـف الأمكنة والفضاءات التي مرَّ بها الرحالة والمتعالقة بالجغرافيـا، يحضر النوع الثانـي الذي يركِّز على وصف الشخصيّات والنّاس؛ بيد أنّ الرحالة يركز، في هـذا المسـتوى، على طبائـع النـاس ومميزاتهم وعاداتهم وأعرافهم ومعتقداتهم، الأمر الذي يجعل منه أنثروبولوجيًّا ينشغل بدراسة الإنسان.

ويتميّـز الوصف، في رحلة ابن فضلان، بنزوعه نحـو إثارة المتلقـي وتوجيهه من خلال اسـتثمار مجموعـة من التّقنيات الحجاجيـة التي تعمل على استدراجه إلى استشـناع بعض الظواهر الإنسانية الغريبـة، واسـتقباح العادات السـيئة التي أثارت حفيظـة الرحالة، وهو ما يعكـس انتقال الوصف من وظيفته التخييليّة الجماليّة إلى الوظيفة البلاغيّة التأثيريّة؛ حيث سيشـكل نقطـة تقاطع خطابات مختلفة مثل المفاخرة والمنافرة، والمدح والذّم.

إن ما يهمنا، ونحن نقارب وصف الإنسـان في رحلـة ابـن فضـلان، ليس هـي المعرفـة في حدّ ذاتها[٦٦]، وإنما الذي يهمُّنا ههنا، هو كيف وصف ابن فضلان الشـعوب والقبائل التي صادفها؟ وما المقاصد التواصلية التي حاول الرحالة تحقيقها؟

ما من شك أن الوصف ينأى عن الموضوعيّة والمصداقيّة في تصويـر الموصوفات، خصوصًا وقد أومأنـا إلى أنـه نابع من المقارنة بالـذات، ومن ثمّ، سـيجعل الرحالة، مـن الوصـف، أرضية خصيبة لتشـكيل الأوصاف الذاتية، والحكم على الآخر، من خـلال مدحه أو ذمـه، وتفضيلـه أو تحقيره. وإذا تأملنـا الوصف في ربوع رحلة ابـن فضلان، ألفينا أنه يعمد أحيانـا إلى تقنيات حجاجية تروم تحقير الإنسـان وذمه، وذلك برسم صورة دنيئة وشنيعة لبعض المجتمعات التي مـرَّ بها في رحلته؛ وهو ما نسعى لتوضيحه في الجدول الآتي:

(٦٦) للاطلاع على الجانب الأنثروبولوجي في رحلة ابن فضلان، يمكن الرجوع إلى مقالة:»رحلة ابن فضلان» لمحمد العاملي، ضمن كتاب جماعي:»الرحلة بين الشرق والغرب»، ص: ١٣٧ فما بعدها.

المقطع الوصفي	القيم المشتركة	الأسلوب الحجاجي
الغزيــة هم كالحمــير الضالة، لا يدينون للــه بديــن ولا يرجعون إلى عقــل ولا يعبــدون شــيئا، بل يسمون كبراءهم أربابا. ولا يســتنجون من غائط ولا بول ولا يغتســلون من جنابة ولا غير ذلــك، وليــس بينهــم وبــين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نســاؤهم مــن رجالهــم ولا مــن غيرهم، كذلك لا تســتر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس.	الكفر-عدم توحيد الله- الجنابة والنجاسة والعري والاختلاط.	التشــبيه، لتقريــب صــورة الموصــوف (الغزيــة). وأســلوب النفي الذي ينفي عنهم جملة من الصفــات كالتدين وإعمال العقل والعبــادة. ثــم أســلوب الإضراب الــذي يفيد نفي ما ســبق وتأكيد ما لحق. يشتغل أســلوب النفي بحيوية في هذا الملفــوظ الوصفي، من خلال نفــي جملة من الأفعال الســليمة عن هذه الجماعة.
لقينــا رجل واحــد مــن الأتراك، دميم الخلقــة، رثّ الثياب، قميء المنظر، خسيس المخبر، وقد أخذنا مطر شديد.	القبح والفقر والوضاعة والخسة.	حجة التفخيم المتمثلة في إســباغ جملة من الصفات على الموصوف.
والــترك كلهم ينتفــون لحاهم إلا أســبلتهم، وربمــا رأيت الشــيخ الهــرم منهــم وقــد نتــف لحيته وترك شيئا منها تحث ذقنه وعليه البوستين فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس.	حلق اللحية	التوكيد (كلهم)، والتشــبيه حيث ماثــل بين الــترك الذيــن ينتفون لحيتهم مع ترك الأسبلة بالتيس.
الباشغرد فحذرناهم أشدّ الحذر، وذلك أنهم شرُّ الأتــراك وأقذرهم وأشــدهم إقداما على القتل، يلقى الرجــلُ الرجــلَ فيفــزز هامتــه ويأخذها ويتركــه. وهم يحلقون لحاهم، ويأكلون القمل.	الحــذر والــشر والقتــل وحلــق اللحية.	صيــغ التفضيل (أشــد، أقذرهم، أشدهم) التوكيد (أنهم).
وهم مثل البهائــم ينكح بعضهم بعضا.	الزنا	التشبيه، مماثلتهم بالبهائم.
وهم أقذر خلق الله لا يســتنجون من غائط ولا بول ولا يغتســلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هــم كالحمير الضالة يجيئــون مــن بلدهــم فيرســون سفنهم بإتل.	النجاسة، الجنابة، القذارة.	أسلوب التفضيل (أقذر)، أسلوب النفــي المتجــلي في نفــي جملــة مــن الأفعــال المحمــودة عنهــم، ثم التشــبيه، تشــبيههم بالحمير الضالة.

ج- الوصف والصورة الساخرة:

شـكّلت السُّـخرية مظهـرًا مـن مظاهـر وصـف صورة الآخر في رحلة ابن فضلان؛ فالرِّحلة بوصفهـا أدبا مقارنا «تسـتدعي الآخـر وتصوره مقارنـة إياه بالذات الواصفـة»[٦٧]. كما أن وظيفة الرحّالة تتجسد في «مقارنة عاداته ووجهات نظره، بعادات ووجهات نظر الأجانب. إنه يقارن المناظر ويتأملهـا ويركّبها»[٦٨]، وبما أنّ الرحلة كانت نحو بلاد بعيدة «فهي بالأساس رحلة نحو الذات، بحكم أن ما يوصف لا ينم إلا عن المقارنة مع الذات بشكل مـن الأشـكال»[٦٩]. وابن فضلان وهـو يقوم بهذه الوظيفـة واجـه غَيْرِيَّةً تمتـاز بالتباين والاختلاف الكبيريـن؛ فقد لاحظ عـادات غريبـة عنه بوصفه عربيًّا مسـلما له تقاليده وعاداته الخاصة، وهذا ما حدا به إلى التوسّـل بالسخرية؛ فالأمور الباعثة على السـخرية تتلخص كلها في «الغرابة»[٧٠]. وسنقف ههنـا عـلى بعض المواقـف السـاخرة في رحلة ابن فضلان.

- السخرية ولغة الآخر:

شـكلت اللغـة ملمحًـا حيويًّا مـن الملامح التي اسـترعت انتباه الرحالـة، يقول وهـو يصف أهل خوارزم: «وهم أوحش الناس كلاما وطبعا، كلامهم أشـبه شيء بصياح الزرازير، وبهـا قرية يقال لها أردكو أهلها يقال لهم الكردلية كلامهم أشـبه شيء بنقيق الضفادع»[٧١]. يجسِّـد هذا المنطوق مظهرا من مظاهر السُّخرية من الآخر في الرحلة، فقد ركّز الرحالة، في وصف أهـل خوارزم، على لغتهم، ومن خلال المقارنة التـي عقدها بين لغتي أهل خوارزم والكردليـة وبـين اللغـة العربيـة بوصفهـا اللغة الوحيدة التي يتقنها الرحالة، وجد اختلافا صارخا بينهما لذلك عمد إلى إثارة السخرية والضحك منها والتهكـم عليهـا والاسـتخفاف من قيمتهـا، وهنا بقـدر ما نستشـف إحسـاس ابن فضـلان بغرابة تلك اللغة عليه، نستشفّ أيضًا عدم اعترافه بالآخر وبخصوصيّاته الثقافيّة والفكريّة المتمثلتين في اللغة بوصفها كيانا يجسّـد هوية الجماعة. والملاحظ أن السـخرية هنا بلغـت ذروتها لأن السّـاخر لجأ إلى المبالغة في التصويـر إذ ماثل بين لغة أهل خوارزم بصيـاح الزرازير وشـبّه لغة أهل أردكـو بنقانق الضفادع، إنّ هذه السُّخرية تستهدف المتلقي وتثير فيه الشـعور بالضحك، نظرا للمبالغة التي انطوت عليها الصُّورة السـاخرة التي تزدري وتحتقر لغة أهل خوارزم. لقد عـزف الرحالة على أوتار الأهواء والعواطف التي تثيرها الصورة السـاخرة من أجل توريـط المتلقـي في الخطاب ومن ثم الانسـياق في المتّجه الذي يسير فيه الرحالة.

- السُّخرية والعقيدة:

نقـرأ في رحلـة ابن فضـلان قـولا آخر تحضر فيه السـخرية بشـكل واضح وهو: «وهم مع ذلك كالحمـير الضالة، لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقـل ولا يعبدون شـيئا، بل يسـمون كبراءهم أربابـا، فإذا استشـار أحدهم رئيسـه في شيء قال لـه: يا رب إيش أعمل في كذا وكذا وأمرهم شـورى بينهـم غـير أنهم متـى اتفقـوا عـلى شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسـهم فنقـض ما قد أجمعوا عليه»[٧٢]. يتبدى من خـلال هذا الملفوظ رؤية ابن فضلان للآخر، لقد بسـط صورة الأتراك العقدية، وباسـتحضار جدلية الأنا/ الآخر، صـدر الرحالة

(٦٧) عبد النبي ذاكر، الصورة: الأن- الآخر، ص: ١٢٤.
(٦٨)المصدر نفسه، ص: ١٢٤.
(٦٩)الرحلة والغيرية، تنسـيق: ع الرحيـم بنحادة وخالد شكراوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص: ٧.
(٧٠) الفاشوش في حكم قراقوش، ص: ٧٨
(٧١)رحلة ابن فضلان، ص: ٤٩-٥٠.
(٧٢) المصدر نفسه، ص: ٦٢.

في حكمــه هذا من خــلال ذاتيته وعقديتــه المتمثلة في دين الإســلام؛ فالمتأمِّل في الوصــف الذي نهجه، سيســتنتج أن الرحالة يصــف انطلاقًا من خلفيّته المعرفية المنبنية على العقيدة الإسلامية التي ترفض تعدد الأرباب وتؤمن بوحدانية الله، لذلك شغّل آلية الســخرية بوصفها وســيلة خطابيَّة تحاول إفساد صورة الآخر الذي تحوَّل إلى حمار هائم لا يستخدم عقلــه ولا يؤمــن بشيء، بقــدر ما تنحــصر مهمته الوجوديــة في إشــباع رغبات الغريــزة، في حين أنَّ العقدية الإســلامية هي عقيدة عقل تدعو الإنســان إلى التفكُّر والتدبُّر، والتصور نفســه يحكم موقفه الصَّــادر في عــادة الــترك المتمثلة في حلــق اللِّحية، جــاء في الرحلــة: «والترك كلهم ينتفــون لحاهم إلا أسبلتهم، وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين فإذا رآه إنســان من بعد لم يشــك أنــه تيس»[٧٣]. نلاحظ أنَّ ابن فضلان يسخر من الشكل الخارجي للإنســان التركي الذي يمتلك نمطا خاصًّا في إعفاء اللحيــة وهو مــا يختلــف جذريًّا عمَّا هــو مألوف عند المســلمين، ومن ثمّ، انطلق الرحالة «من نسقه الفقهي وصوره الثابتة وقوالبه الجاهزة، التي أراد أن يقولب بها الآخرين»[٧٤].

- السخرية والعيوب الجسدية:

يمكــن الوقــوف في الرحلــة أيضًــا عــلى صور ســاخرة أخرى، بيد أنَّ موضوعها هو شــكل ملــك الصَّقالبــة حيــث ركّــز الرَّحالة على كشــف عيــوب المظهر الخارجي للمســخور منــه، يقول:» وهــو رجــل بدين بطين جــدًا»[٧٥]، ويقــول أيضا: «وكان رجلا له منظــر وهيبة بدين، عريض كأنما يتكلــم من خابيــة»[٧٦]. لقد جعــل ابن فضلان من المظهر الخارجي للملك موضوعًا لإثارة الســخرية والضَّحك على اعتبار أن مدار السُّخرية هو تجسيد العيــوب والمبالغــة في وصفهــا، وإذا ربطنــا هــذه الصُّورة الساخرة بسياقها الذي قيلت فيه والمتمثِّل في الحوار الذي جــرى بين الرحالة وملك الصقالبة الذي شــدّد على تهاون البعثة في القيــام بمهمتها؛ إذ إنَّها أضاعت المال الذي أرســل مــن قبل المقتدر بالله؛ فإننا ســنلفي أن الرحالة تحايل على المتلقي لأنــه وقع في عقــدة لم يجد لها حــلا، حيث لجأ إلى تصوير الملك تصويرا ساخرا لِلَفْت انتباهه وصرفه عن موضوع الحوار.

إن الســخرية في رحلــة ابن فضــلان نابعة من خلفيَّة الرحالــة وتصوره الــذي يختلف عن الآخر اختلافا كبيرا، ومن ثمّ، يمكن عدُّ السخرية لونا من ألوان النَّقــد، فهي «تعبّر عن رأي معين للســاخر، أو نظرة خاصة له، أو إحســاس خاص تجاه حالة أو ظاهــرة أو منظــر لا يتفق والظواهــر الطبيعية المألوفــة في نظره»[٧٧]. وعلى هذا الأســاس شــكَّلت السُّخرية نتيجة لما عقده الرحالة من مقارنات بين الذات والآخر.

نخلص ممَّــا ســبق، إلى أن الصُّورة السَّــاخرة عضّدت المنحى البلاغيّ الذي اضطلع به الوصف في جعل المتلقي ينســاق انسياقا جامحا مع ما حملته الرحلة، من ثمّ، التواطؤ مع الرحالة والتَّفاعل معه، وتبنــي مواقفه من خلال اســتقباح تلك الشــعوب واستهجانها ومقت تصرفاتها وأفعالها، والتَّضامن مــع الرَّحالة بعدما وقع في مأزق مع ملك الصقالبة الــذي يمتاز بمظهــر مخيف ومهيــب. وتبعا لهذا يمكــن القــول إنَّ التَّصويــر الســاخر ومــا يحمله

(٧٣)رحلة ابن فضلان، ص: ٦٧.
(٧٤)بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق، ص: ١٥٨.
(٧٥)رحلة ابن فضلان، ص: ٧٦.
(٧٦) المصدر نفسه، ص: ٨١.
(٧٧)عبد النبــي ذاكر، صورة أمريــكا في متخيل الرحالين العرب، منشــورات الزمن،ع٣١، الــدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص: ١٤.

من أبعاد إســتطيقية وجمالية شــكل آلية خطابية حجاجية دعّمــت الخطة العاطفيّــة التي انتهجها الرحالة في إثارة مشاعر المتلقي وأهوائه ونوازعه.

٦-بلاغــة الأسلوب:

يســهم الأســلوب في تعضيد الاســتراتيجيّة الوصفيّة التي عمد إليها ابن فضلان لرســم صورة للشُّــعوب والقبائــل التي وصــل إليهــا، وذلك من خلال توكُّئه عــلى مجموعة من الأســاليب البلاغيّة المختلفة التي رمى من اســتثمارها إلى السطو على اهتمام المتلقي ومشــاركته واســتمالته، فــ»للتأثير الأســلوبي قدرة على إثــارة القلــوب»[٧٨]، ومن ثمّ، فالأســلوب ينحاز من وظائفه الجمالية التي يتسم بها، ليحقق بعضًا من المقاصد التأثيرية في الرحلة.

ومن أجل رصد الميكانيزمــات الحجاجيّة لا بد من جرد الترســانة الأســلوبية التي يعدُّ نــصُّ الرحلة مهــدا لها. والملاحظ أن ابن فضــلان كان ينهل من المدونــة البيانية والأســلوبية العربيــة المعروفة، ما جعل أســلوبه ملائما للغة عصره. ومن الأســاليب البيانيــة التــي تشــكل الوصف بوســاطتها نلحظ تكثيفا للصورة المبنية على المشابهة، وما يسوِّغُ هذا التكثيف، الوعي الســائد في الفكــر البلاغي العربي القديم، الذي يعد التشــبيه بابا من أبواب الوصف، فقد جــاء في العمدة، مثلا، مــا يأتي: «و(الوصف) مناسب للتشبيه، مشتمل عليه، وليس به؛ لأنه كثيرا ما يأتــي في أضعافــه»[٧٩]. ويمكــن تجلية الصور التشبيهية المذكورة في متن الرحلة في الجدول التالي:

التشبيه	المشبه	الأداة	المشبه به	وجه الشبه
كلامهم أشــبه شيء بصياح الزرازير	كلام	أشبه	صياح الزرازير	غمــوض الــكلام وسرعته.
الغزيــة كالحمــير الضالــة لا يدينون لله بدين	الغزية	الكاف	الحمير	الضلالــة والسروح في الأرض.
وهــم مثــل البهائم ينكــح بعضهــم بعضا	الصقالبة	مثل	البهائم	التناكح فيما بينهم.
كأنهم النخل شقر حمر	الروس	الكاف	النخل	الطول.
كلامهم أشــبه شيء بنقيق الضفادع	كلام الكردلية	أشبه	نقيق الضفادع	القبح والغموض.

(٧٨)محمد مشبال (إشراف)، البلاغة والخطاب، ص: ١٠٨.

(٧٩) الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، ط٥، ١٩٨١م، ص: ٢٩٤.

تشـتغل هـذه الصُّـور الأسـلوبية المبنيـة على المشـابهة من خـلال تقريب صـورة الآخر في ذهن المتلقـي، أي إنَّ وظيفتهـا، مبدئيًّـا، هـي «الإبانـة والتوضيـح»[٨٠]، لذلـك ينهض التَّشـبيه بتقريب الدَّلالة وتحويل المعنى المجرّد إلى معنى محسوس، قابـل للحصول في الأذهـان بناءً على ما له وجود في الواقع ويعيه المتلقي، فكما قال حازم القرطاجني في «المنهـاج»: «المعاني إنما تتحصل في الأذهان عن الأمور الموجـودة في الأعيان»[٨١]، غير أنَّ الإشـكال المطـروح هـو: هـل هـذه هـي الصُّـور الواقعية الحقيقيّة للإنسـان في تلك البلـدان التي زارها ابن فضـلان؟ أو إنّ الرحالـة يوضـح الصـورة التـي تشـكلت في ذهنه هو؟ بمعنى آخر، ألا يمكن القول إنَّ الرحالة يسعى إلى إقناعنا من خلال هذه الصُّور البيانيـة بتلك الصـورة التي رسـمها هو؟ بمعنى ثالـث: أليسـت هـذه الصيغ الأسـلوبية انعكاسـا للصور الذهنية وليست انعكاسا للصور الواقعية؟

يمكـن أن نجيـب عن هـذه الأسـئلة، بناءً على فرضيّـة مؤداهـا أن الرحالـة يصـف بنـاء عـلى موقفـه وتصوراته ومشـاعره وانفعالاته، فهو «لا يعـرض الوقائـع الخارجية للعالـم الموصوف، إلا ليسـتعرض الوقائع الداخليـة المتعلقة بالانفعالات النفسـية للصوت الحاكـي»[٨٢]، ومن ثـمَّ، يتغلف الوصـف بغـلاف إيديولوجـي ممـزوج بالخلفيّة العقديّة للرحالة، الَّذي أصدر أحكامًا تترجمها تلك الأوصاف التي استخلصناها في الجدول، من خلال اختلافهـا مـع أفـكاره ومعتقداته؛ وعليه توسَّـل بأسـلوب التَّشـبيه الذي يقرِّب الدَّلالـة، من خلال حسّـية العلاقة بين المشـبه والمشـبه بـه، من أجل استمالة المتلقي وحمله على استفظاع تلك العادات واستشـناع تلك التصرفات، وذلك بإثارة مشـاعر القبح والفظاعة من تلك الأقوام التي لا تؤمن بالله تعالى ولا توحده.

ومـن الأسـاليب التـي أدَّت الوظيفـة نفسـها أسـلوب النفي؛ فإذا كان النَّفي هـو إخراج الحكم في تركيـب لغويٍّ مثبت إلى ضدّه، فإن الرّحالة عمد إلى اسـتعماله لنفـي جملة من الصفـات المحمودة والأفعـال الفاضلة عـن الموصوفات التـي تصدّى لتجسـديها للمتلقي؛ بيد أنَّ هذا الأسـلوب إذ يبيِّن مكامن الخلل في الآخر، يبرز - بشكل جليٍّ - الذَّاتَ، وكما يقول أحد الباحثين: «أنا أنظر إلى الآخر، لكن صورة الآخر تروّج شيئا من صورتي الشخصية... أنـا أريد أن أقـول الآخر، وفي معـرض ذلك أنكره وأقـول نفسي»[٨٣]. ومن ثمَّ، فـإنَّ نفي الآخر يعني تأكيـد الذات، هكذا حاول الرحالة أن يعقد مقارنة بـين نسـقه الثقافي وبـين الآخر، ليصـل إلى نتائج جعلته ينفي جملة من القيم الأخلاقية التي يتصف بهـا عـن الآخر، ويمكـن توضيح ذلـك في الجدول التالي:

(٨٠)حسن طبل، الصورة البيانية في التراث البلاغي، ص: ٧٥.

(٨١)حـازم القرطاجنـي، منهاج البلغـاء وسراج الأدباء، تحقيق: الحبيـب ابن خوجة، دار الغرب الإسـلامي، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م، ص: ٩.

(٨٢)عبد النبي ذاكر، الصورة الأنا الآخر، ص:١٢١.

(٨٣)عبد النبي ذاكر، الصورة الأنا والآخر، ص: ١٢١.

الذّات	الآخر
- ندين لله بدين - نستنجي من الغائط والبول - نغتسل من الجنابة. - بيننا وبين الماء عمل. - يستتر نساؤنا من الرجال.	- لا يدينون لله بدين. - لا يستنجون من غائط ولا بول. - لا يغتسلون من الجنابة. - ليس بينهم وبين الماء عمل. - لا يستتر نساؤهم من رجالهم.

يتبدَّى لنا من خلال هذا الجدول، أنَّ الرَّحالة استثمر مجموعة من القيم المشتركة التي تشكِّل معتقداتٍ ثابتةً يؤمن بها المتلقّي لكي يجعلها مدخلا ناجعًا للتّأثير فيه وجعله يشعر بالتقزُّز والفظاعة، وقد تأتَّى من خلال بلاغة المقارنة المضمرة التي عقدها بين «الذّات» و«الآخر»، هذه المقارنة التي أدَّت إلى نفي مجموعةٍ من المزايا والمحامد عن الآخر الموصوف، الأمر الذي سيثير مشاعر الازدراء والاحتقار من قبل المتلقي إزاء هذا الآخر. يتَّضح، إذا، أن هذه الوجوه الأسلوبية انتقلت من وظيفتها التخييلية لتضطلع بدور تداوليٍّ؛ لأنّ الرحالة لجأ إليها «لإثارة مشاعر المتلقي والاستحواذ عليه لإقناعه بخطابه»[٨٤].

ومن الصِّيغ الأسلوبية –كذلك– التي توكأ عليها الرحالة بغية تقديم المعطيات والمعارف للمتلقي، نلحظ حضورَ أسلوبِ التَّفضيل بشكل لافت، ويمكن تسويغ هذا الاختيار الأسلوبي بكون التفضيل «أسلوبا مناسبا لإدراك الرّحالة الحسي بالموجودات حوله، ولذلك تراه يستخدم اسم التفضيل، فيعطيه قدرة كافية لوصف ما يرى من الأماكن والموجودات»[٨٥]، إضافة إلى أن هذا الأسلوب «مكون من مكونات المفاخرة»[٨٦]، وقد أومأنا سابقا إلى تقاطع خطاب الرحلة مع الخطاب الاحتفاليِّ الذي ينبني على المفاخرة أو المنافرة.

يسهم التفضيل في إنعاش المفاخرة التي يعمد إليها الرحالة من خلال عملية المقارنة. ويمكن تجلية بعض صيغ التفضيل في الجدول الآتي:

المفضَّل	صيغ التفضيل	اسم التفضيل	القيم المشتركة
الرحالة/ ابن فضلان	- فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شرّ الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل. - وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول... - وهم أوحش الناس كلاما وطبعا.	شر/ أقذر/ أشدّ أقذر أوحش	ينطلق الرحالة في عملية المفاضلة من قيم مشتركة بينه وبين المتلقي مثل: الشر، القذارة، القتل. هذه القيم المنبوذة من قبل المشترك الثقافي والعقدي جُعلت أساس المفاضلة.

(٨٤)محمد مشبال (إشراف)، البلاغة والخطاب، ص: ١٢٢.
(٨٥)نهلة الشقران، خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، الآن ناشرون وموزعون، الأردن، ط١، ٢٠١٥م، ص:٩٥.
(٨٦)محمد مشبال، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ، ص:٢٤. (بتصرف)

يتضح من خلال هذه الأمثلة أنَّ أسلوب التَّفضيل أسلوبٌ موجَّه، يختزن مقاصدَ تداوليَّة مضمرة؛ فقد اضطلع بوظيفة جوهريَّة هي تقديم الآخر في صورة وضيعة وخسيسة، و«لعل إضفاء طابع الحيْوَنَة والوحشية والقبح على الآخر كافٍ لتشنيعه والهزء منه»[٨٧]. وتجدر الإشارة إلى أن هذه النظرة التحقيريَّة للآخر التي عبَّر عنها ابن فضلان، نتجت عن قوة الدولة الإسلامية وتقدمها، حيث «ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية ازدهارا فاق ما سبقها من حضارات»[٨٨].

إنَّ «الانتماء إلى ثقافة الفاتح والحاكم قد جعل الأساس الديني/ العرقي/ الحضاري معيارا لوصف أغلب الأشياء في إطار التزيين والتقبيح»[٨٩]. ومن ثمَّ، فإنَّ المفاضلة التي نلمسها في أغلب الموصوفات التي سيقت في الرحلة لا تخلو من موجِّهات تسعى إلى المصب نفسه وهو تحقير الآخر ورصد دونيته وخسّته. وبما أن «للتفضيل وظيفة عاطفية»[٩٠]، فقد شكل آلية تأثيرية تستدعي مشاركة المتلقي من خلال استفظاعه لصفات الآخر واستيحاش طبائعه، والتقزز من قذارته.

ومن جانب آخر، يعمد ابن فضلان إلى أسلوب توثيقيٍّ – كما أشرنا سابقا- يعتمد فيه على الدّقة والضّبط والإحكام خصوصا فيما يتعلق بالمسافة والوزن، فضلاً عن هذا يورد الرحالة أفعالا تدل على المعاينة والحضور أثناء سرده واقعة من الوقائع بغية استئمان المتلقي للأخبار المروية، وكسب ثقته ونذكر على سبيل التمثيل:

- ورأيت الدراهم ببخارى...(ص:٤٧).
- ورأيت في بلده من العجائب...(ص:٨٢).
- ورأيت النهار... ورأيت القمر... ورأيت البلد...(ص:٨٤).

إنّ مسير الرحلة في أغلبه يعتمد على الرؤية والمعاينة الفعلية من قِبل الرحالة نفسه، الأمر الذي يجعل المتلقي مطمئنا ومرتاحا لما حوَتْه الرحلة من أخبار ووقائع حول البلدان التي وصل إليها، بناء على القاعدة المشتركة في المدرك الجمعي «ليس من رأى كمن سمع»؛ فالرؤية تعني الحضور الحسّيّ والمعنويّ لابن فضلان إبّان الحدث، دون وجود وسيط. هذه الاستراتيجية الأسلوبية التي اعتمد عليها الرحالة تشدّ أزْرَ الموجهات البلاغية التي أثثها في خطاب الرحلة؛ إذ تتوجه إلى المتلقي لإقناعه بصدق الأخبار وواقعيتها.

والملاحظ، أيضا، أنّ ابن فضلان ينتهج أسلوبًا يؤثر فيه إدراج كلمات غير عربية، ونوضح هذه الكلمات في الجدول الأتي:

- ثم قال: بكند يعني الخبز بلغة خوارزم [٩١].
- ثم يقول: بكند، يعني الخبز[٩٢].
- وقال: بير تنكري، وهو بالتركية الله الواحد؛ لأن بير بالتركية واحد، وتنكري: الله بلغة الترك[٩٣].

يسهم هذا الاختيار الأسلوبي في إضفاء سمة الواقعيّة على الرحلة؛ لأنَّ الإنسان حينما يتلاقح مع مجتمع ما ويخالطهم لمدة زمنية، بالضّرورة ينفتح عليهم ويتعرف على بعض خصوصياتهم الثقافية والاجتماعية، ولعلّ اللغة أهمّ ما يشد اهتمام الإنسان نظرا لدورها المهم في التّواصل، وبناءً عليه، علقت في ذهن ابن فضلان هذه الكلمات، وعمد إلى استنباتها داخل متن رحلته، لتكون حجة

(٨٧) عبد النبي ذاكر، العين الساخرة: أقنعتها وقناعتها في الرحلة العربية، المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، الدشيرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص:٢٦.
(٨٨)حسين فهيم، أدب الرحلات، ص: ١٧٤.
(٨٩) المصدر نفسه، ص: ١٧٤.
(٩٠)نهلة الشقران، خطاب أدب الرحلة، ص: ١٠٨.
(٩١)الرحلة، ص:٦٦.
(٩٢)الرحلة، ص: ٥٢.
(٩٣)الرحلة، ص: ٦٢.

تجعل القارئ يستسلم لمصداقية الرحلة على كون أنّ الرحالة قد زار وتعرف فعلا على تلك الأقوام وحفظ بعضا من لغتها.

خاتمة:

لقد سعينا، في هذه الدّراسة، إلى الكشف عن بلاغة رحلة ابن فضلان، من خلال رصد الأبعاد الحجاجيّة والتّأثيريّة التي تلتبس بها المكوّنات السّردية في رحلة ابن فضلان، والمكوّنات التي عنينا بتتبّعها هي: الحكي، الخبر، الحوار، الوصف، الأسلوب.

لقد أسهم التّحليل السابق إلى قيام رحلة ابن فضلان على استراتيجيّات بلاغيّة حجاجية، يؤطِّرها مكون الحكي، حيث أبان الرّحالة، في خطاب رحلته، عن معطيات دقيقة ومحدّدة، من خلال توثيق السّند وتدقيق المعلومات، بغية استمالة ارتياح القارئ ومن ثم إيقاعه في شرك التصديق. كما عمد الرحالة إلى التأثير في عاطفة المتلقي وتأجيجها من خلال توجيه بعض المكوّنات السرديّة توجيها عاطفيًّا كالوصف الذي قام على المفاخرة واستثمار سِمَتَيْ المدح والذم. وقد عزز ابن فضلان خطابه بآليات إقناعية تثبت الدَّعاوى المعروضة في رحلته مثل الأخبار التي اضطلعت بوظائف حجاجية كما وضحنا، والأسلوب التَّوثيقي الذي يروم إضفاء الواقعية والمصداقية على الخطاب.

إن المكوّنات السّردية في رحلة ابن فضلان تستضمرُ مجموعةً من المقاصد التواصليّة التي تستهدف المتلقي، تدور هذه المقاصد كلها في فلك واحد وهو الوعظ والإرشاد والنصح، وتجْلِيتها تأتّتْ لنا من خلال تجاوز المعنى الجاهز والدلالة الطبيعية، وتعميق النظر في الأبعاد التداولية التي تروم خلق الفعل الإنجازي في المتلقي. وفي الأخير، لا بد من الإشارة إلى أنّ هذه الدّراسة محاولة في قراءة الخطاب الرحلي من منظور بلاغيّ حجاجيّ يفسح المجال لأسئلة جديدة وإشكالات مختلفة، تعيد النظر في الموروث الأدبي، هذا الموروث الذي يؤكد دائما للقراء بأنه منبع ثرٌّ ما يزال متعطشا للدرس والبحث والاكتشاف.

المصادر والمراجع:

١- المصادر:

- أحمد بن فضلان، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، تح: شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

٢- المراجع:

- بوشعيب الساوري، الرحلة والنسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي/ رحلة ابن فضلان إنموذجا، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧م.
- حافظ إسماعيلي علوي (إشراف)، الحجاج، مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج١، منشورات عالم الكتاب الحديث، الأردن، ٢٠١٠م.
- الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، لبنان، ط٥، ١٩٨١م.
- حسن طبل، الصورة البيانية في التراث البلاغي، مكتبة الزهراء، ١٩٨٥م.
- الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، الكتاب الجديد، الصنائع، ط١، ٢٠١٤.
- حمادي صمود (إشراف)، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية تونس كلية الآداب منوبة.
- سعيد جبار، التخييل وبناء الأنساق الدلالية: نحو مقاربة تداولية، رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
- عبد النبي ذاكر:
- الرحالة العرب ودهشة اكتشاف الغرب، منشورات

الزمن، ع٥١، فبراير ٢٠١٥م.
- الصـورة: الأنا، الآخر، منشـورات الزمـن، ع٤٣، أكتوبر ٢٠١٤م.
- صـورة أمريـكا في متخيـل الرحالين العرب، منشـورات الزمن، ع٣١، الدار البيضاء، ٢٠٠١م.
- فـؤاد قنديل، أدب الرحلة في الـتراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط٢، ٢٠٠٢م.
- القرطاجنـي حازم، منهـاج البلغـاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٣.
- محمـد العمري، البلاغة الجديدة بـين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٢م.
- محمد القاضي (إشراف)، معجم السرديات، مجموعة من دور النشر، ط١، ٢٠١٠م.
- محمـد حمـام (تنسـيق)، الرحلـة بين الـشرق والغرب، منشـورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامـس، مطبعة النجاح الجديـدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣م.
- محمد مشبال:
- البلاغـة والأدب: من صور اللغة إلى صور الأسـلوب، دار العين، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.
- البلاغـة والـسرد: جـدل التصويـر والحجـاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ٢٠١٠م.
- خطـاب الأخـلاق والهوية في رسـائل الجاحـظ: مقاربة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٦م.
- خطـاب الأخـلاق والهوية في رسـائل الجاحـظ: مقاربة بلاغيـة حجاجية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٥م.
- محمود طلحة، تداولية الخطاب السردي: دراسة تحليلية في وحـي القلم للرافعي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م.
- المدخـل إلى علم الجغرافيا الطبيعية، حسـن أبو سـمور وعلي غانم، دار صفاء، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
- ناصر عبـد الرزاق الموافى، الرحلـة في الأدب العربي حتى نهاية القـرن الرابع الهجري، كليـة الآداب، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- نهلـة الشـقران، خطـاب أدب الرحلات في القـرن الرابع الهجري، الآن ناشرون وموزعون، الأردن، ط١، ٢٠١٥م.
- هشـام مشـبال، البلاغـة والـسرد والسـلطة في الإمتـاع والمؤانسة، دار كنوز المعرفة، عمان، ط١، ٢٠١٥م.

٣- الدّراسات:

- حسين فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع١٢٨، يونيو ١٩٨٩م.
- عبد النبـي ذاكر، ملفوظية الرحـلات العربية إلى الغرب، مجلة علامات، العدد ٢٠، ١أبريل ٢٠٠٣م.
- محمـد مشـبال وعبد الواحـد العلمي، الحجـاج والسرد، سـيمور شـتمان، مجلـة الصـورة، ع٥، شـتاء ٢٠٠٥م. ص:٥٦.